المحاضرة الثانية (التوسع الاستعماري في الشمال الجزائري)

8. التوسع الفرنسي في سهل متيجة:

بعد أن سقطت مدينة الجزائر في 5 جولية 1830، بمقتضى توقيع معاهدة التسليم، تم طي مرحلة المقاومة الرسمية، وبما أن منطقة متيجة الأقرب لمدينة الجزائر، كان من الطبيعي أن يشعر أهلها بالخطر، بعد أن انهارت السلطة المركزية. لقد كان للفراغ الذي أحدثه هذا الانهيار أن سادت حالة من الاضطراب، لكن سرعان ما تبلور اتجاه عام شمل معظم مناطق الوطن يدعو إلى مجابهة المحتل والتصدي له بالقوة.

يقع سهل متيجة بين الساحل المطل على البحر شمالا ومرتفعات الأطلس البليدي جنوبا وبودواو إلى يسر شرقيا وحجوط غربا ، ويزخر السهل بخصوبة أراضيه وتنوع موارده الفلاحية. وهو يتبع إداريا دار السلطان أي العاصمة مقر السلطة المركزية، وهو ينتظم في أوطان حسب التقسيم الإداري العثمان كل وطن يديره قائد والوطن الواحد يضم مجموعة من القبائل على رأس كل قبيلة شيحن ويمكن وهذه الأوطان هي: وطن بني خليل، وطن قبيلة بني موسى، وطن قبيلة الخشنة، وطن السبت. أما مرتفعات الأطلس البليدي نجد قبائل بني صالح وبني مصرة والغلاوي وبني قينع وبني مسعود.

غير أن أهم وأكبر القبائل التي تسيطر على السهل اجتماعيا وسياسيا وتجاريا هي القبائل الثالثة الأولى (وطن بني خليل، وطن قبيلة بني موسى، وطن قبيلة الخشنة) خاصة وأن أهم الأسواق التجارية الأسبوعية توجد بحوزة هذه القبائل الثلاث. التي تعد أسواقها الثالثة أهم ممون لمدينة الجزائر باللحوم والحبوب والخضار والألبان والفواكه إلا أن سوق بوفريك أكبرها وأهمها لوقوعه على حافة الطريق الذي يقسم متيجة إلى قسمين، فكل الطرق المؤدية إلى البليدة المدية مليانة الواقعة في الغرب أو الجنوب الغربي تمر حتمًا من هذه النقطة.

تعدّ مدينة البليدة من أهم مدن سهل متيجة، وهي المدينة الواقعة في سفح جبال الأطلس على مجرى وادي سيدي الكبير الغني بمياهه العذبة، وهي أكبر مدن سهل متيجة الغنية بحدائقها وبساتينها، حيث تنتشر بها أشجار البرتقال والليمون والتين والزيتون والورد. ثم تليها مدينة القليعة الواقعة في مرتفعات الساحل على الضفة اليسرى من وادي مزفران. ومن هنا تكمن أهمية سهل متيجة التي باتت مطمعا لجيش الاحتلال وكان لزاما على أهلها التعجيل في تنظيم صفوفهم وتنسيق الجهود لمقارعة العدو والحيلولة دون تمكنه من أراضيهم.

بعد سقوط مدينة الجزائر اهتدى شيوخ أوطان متيجة إلى عقد اجتماع بتامنفوست بحضور الشيخ محمد بن زعموم وأعيان مدينة الجزائر في 21 جويلية 1830، تقرر على اثره اعلان الجهاد ضد الغزاة وضرب حصارا على جيش الاحتلال في مدينة الجزائر، وفرض المقاطعة الاقتصادية لمنع الفرنسيين من التمون من أسواق منتجة المذكورة آنفا. هذا الأسلوب في المواجهة سرعان ما أعطى

ثماره بندرة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها. ممّا أثر سلبا على جيش الاحتلال الفرنسي في مدينة الجزائر ودفع بهم إلى محاولة تكسير الحصار بقيادة القائد العام الجنرال دوبرمون.

2 - الحملة العسكرية الأولى على مدينة البليدة 24 جويلية 1830:

استهدف الجنرال دوبرمون مدينة البليدة عاصمة متيجة لجس نبض شيوخ القبائل غير مبالي بالتحذيرات التي أطلقها شيوخ المقاومة وعلى رأسهم محمد زعموم، بعد أن يتيقن أن جيشه لا يمكن أن يبقى حبيس مدينة الجزائر، فقرر ارسال الجيش بقيادة دامريمون إلى عنابة وآخر إلى مدينة وهران بقيادة العقيد قوتفراي في حين قاد بنفسه حملة على البليدة، قوامها ما بين 1400 و1500 ضابط و جندي بالإضافة إلى بطارية مدفعية وفرقة قناصة، سالكا طريق الجزائر بئر خادم وادي الكرمة بئر توتة وبوفريك أين قضى ليلته، وفي اليوم الموالي 24 جويلية 1830 حلّ بالبليدة حيث عسكر أمام باب الجزائر دون أن يسمح له بدخول المدينة، وما إن بدأ يطمئن لهدوء الأوضاع حتى التفت من حوله رجال المقاومة من بني صالح وبني مصرة وبني خليل وبني موسى وحجوط حيث باغتوه من كل جهة، متسترين بكافة الأشجار. وهنا تأكد الجنرال دوبرمون أن تحذيرات شيوخ أهل متيجة كانت جادة فلم يجد بدا من الانسحاب تحت ضربات المقاومة، التي لا حقته حتى بئر توتة. أما الخسائر فكانت هامة في صفوف الفرنسيين لا سيما أن القتال لم يتوقف على امتداد الطريق الرابط بين البليدة وبئر توتة، فكنت الخسائر 150 جندي فرنسي ما بين قتيل. وتذكر رواية أخرى أن عدد القتلى الفرنسيين بلغ 58 فرنسيا من بينهم الضابط تريلون المساعد الأول للجنرال دوبرمون.

تمثل هذه المعركة أول هزيمة للجيش الفرنسي منذ احتلال مدينة الجزائر، ومن ثم فهي أول انتصار تحققه المقاومة الشعبية ضد الجيش الفرنسي.

3 – الحملة العسكرية الثانية على البليدة 17 نوفمبر 1830:

هذه الحملة قادها الجنرال كلوزيل الذي خلف الدوق دوبرمون رسميا يوم 2 سبتمبر 1830 الذي تم تنحينه فيه هذا الأخير على رأس قيادة الجيش على اثر ثورة جويلية 1830 في فرنسا التي اطاحت بنظام الملك شار العاشر. ومنذ أن تولى الجنرال كلوزيل قيادة الجيش عزم على الانتقام من سكان البليدة ومن الباي بومزراق شخصيا، فبعدد شهرين ونصف من توليه قيادة الجيش، قاد حملة ثانية على مدينتي البليدة والمدية بهدف كسر الحصار من جهة ورد الاعتبار للقوات الفرنسية من جهة ثانية بعد الهزيمة الأولى، وتنصيب مصطفى بن الحاج عمر حاكما على المدية خلفا للباي "مصطفى بومزراق".

انطلق "كلوزيل" على رأس جيش قوامه 8000 جندي وضابطا يوم 17 نوفمبر 1830 إلى البليدة وفي صبيحة اليوم الموالي اعترضت قوات المقاومة طريقه حيث اشتبكت معه في عدة نقاط، ورغم ذلك تمكن جيش كلوزيل من الوصول إلى مدينة البليدة مع نهاية اليوم الثامن عشر، حينها حاول سكان المدينة غلق الأبواب، إلا أن القوات الفرنسية المدعمة بوصول بثلاث فرق يقودها الجنرال "أشار"

والجنرال "هوريل" والجنرال "مونك دوزر" تمكنت من احتلال المدينة في اليوم الموالي بعد أن كلفهم ذلك سقوط 30 قتيلا، وانتقاما لما أبدته المقاومة قام بتحويل مسجدها إلى مستشفى لمعالجة جرحاه، وأطلق العنان لجنوده من نهب المنازل وهتك الأعراض. وبعد أن أحكم كلوزيل قبضته على المدينة وأقام فيها حامية بقيادة العقيد "روليير" مشكّلة من فرقتين وقطعتين مدفعية اتجه مع بقية جيشه نحو المدية، وما إن وصل مضيق شفة حتى باغته أتباع الباي مصطفى بومزراق مما أدى إلى سقوط 27 قتيلا و80 جريحا في صفوف الجيش الفرنسي، ولم تتمكن القوات الفرنسية التقدم نحو المدية إلا يوم 22 نوفمبر 1830.

4 – الحملة على مدينة المدية 22 نوفمبر 1830:

استطاع "كلوزيل" الوصول إلى المدية يوم 22 نوفمبر 1830 وعين "مصطفى بن الحاج عمر" عليها وكان من التجار الكبار وصاحب ثروة هائلة، وله العديد من الخدم، ولم يكن من أصحاب القيادة ولا الحكم لكنَّ أعضاء بلدية الجزائر نصحوا "كلوزيل" به، فعيّنه بايا على بايليك التيطري مكان "مصطفى بومزراق"، وقد رافق "ابن عمر" حملة "كلوزيل" إلى المدية وهناك ترك له حامية من ألف ومائتي جندي بدون ذخيرة، وفي الوقت الذي، وفي الوقت الذي كان فيه "كلوزيل" في المدية، شن "الحسين بن محمد بن زعموم" هجوما على الحامية الفرنسية المرابطة في البليدة بعد أن جمع فرسانا ومشاة من قبائل الخشنة وبني مصرة، وبني خليل، وكان قد قسم رجاله إلى مجموعتين، اتجهت واحدة إلى البليدة متخذة من سفح الجبل طريقا لها وأخرى شقت طريقها وسط السهل لتقطع المدد على الحامية قرب بوفاريك، وتمكنت هذه المجموعة الأخيرة من القضاء على عدد من الفرنسيين كانوا يحملون المدد والذخيرة للحامية المتواجدة بالبليدة، واستحوذوا على سلاحها، ثم تابعت قوات "ابن زعموم" سيرها إلى أن وصلت يوم 22 نوفمبر إلى البليدة وشرعت في تطويق المدين إلى جانب اعتمادها أسلوب المناوشات. وفي 26 نوفمبر اقتحمت المدينة بحوالي 6 إلى 7 آلاف مقاوم حسب المصادر الفرنسية، ولولا الخدعة التي لجأ إليها قائد الحامية "روليز" والمتمثلة في ايجاد ثغرة تمكن من خلالها مع فرقة من جنده الالتفاف وراء سور المدينة أين باغت قوات "ابن زعموم" من الخلف مما أربك المقاومين حتى ظنوا أن قوات "كلوزيل" قد داهمتهم فانسحبوا بعد خمس ساعات من القتال سقط حلالها 19 فرنسيا وجرج 55 منهم، في حين تذكر المصادر الفرنسية استشهاد 400 مجاهدا. ويظهر جليا أن نوعية الاسلحة التي بحوزة الفرنسيين كان لها الأثر السلبي على المقاومين، الذي كانت عدتهم تنحصر في السيوف والحراب وبعض البنادق التقليدية ذات النمط العثماني، أو على الشاكلة التي كانت قبائل فليسة تشتهر بصناعتها، أو التي يستحوذون عليها من العدو الفرنسي وتلك التي كانت تهرب من مدينة الجزائر بواسطة الأعيان الحضر . ورغم التفوق من حيث العدد فإن الإرادة والثقة بالله والدفاع عن الشرف ورفع الظلم كان أقوى من هذه الأسلحة للتعبير عن رفض الاستعمار.

بعد عودة "كلوزيل" من المدية، وأمام الضربات التي ألحقها المقاومون لا سيما في 27 نوفمبر 1830، قرر سحب جنده نحو مدينة الجزائر بعد أن انتقم مرة أخرى من السكان العزل. وهكذا باءت

بالفشل محاولة فرنسا الثانية لتوسيع دائرة نفوذها خارج مدينة الجزائر. في حين انتقل مقاومو متيجة من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، فاعتمدوا أسلوب الكر والفر في شكل فرق صغيرة والاغارة على بعض المزارع التي بدأ الكولون يقيمونها في ضواحي العاصمة، الأمر الذي جعل الفرنسيين على عهد الجنرال "بيرتزين" (Berthezene) الذي تولى الحكم في 20 فيفري 1831 يعتمدون سياسية التهدئة، إذ قام الأخير بسحب حاميته من المدية تحت ضربات "أحمد بن الباي بومزراق" وعين "الحاج محي الدين بن الصغير بن سيدي المبارك" (رجل دين وورع وصاحب زاوية القليعة) في منصب آغا العرب، لما لهذه الشخصية من نفوذ وتأثير على سكان متيجة، وحتى يكون واسطة بين سكان متيجة والحاكم الفرنسي، إلا أن هذه السياسة لم تعمر طويلا بمجيء "الدوق روفيقو" في شهر ديسمبر 1831 خالفا "لبيرتزين"، وقد اتسم عهده بالقهر و الغطرسة، سعيا منه لسحق المقاومة بجميع الطرق بما فيها الإبادة الجماعية واغتيال شيوخ القبائل حتى اعطائهم الأمان مكتوبا كما هو الشأن مع ما وقع لقائد بني خليل الشيخ "العربي بن موسى"، وقائد وطن السبت الشيخ "عبد الوادي"، حيث استدرجهما بمعية وفد من أهل متيجة يرأسه الشيخ "محي الدين" آغا العرب للتحاور معهم، إلا أنه في الأخير أمر بقطع رأسيهما، ناهيك عن المجزرة التي ارتكبها في حق قبيلة العوفية، بعد أن أغار عليها ليلا بحجة اعتدائها على وفد "فرحات بن سعيد" في ليلة 07 أفريل 1832، وإن كان الفرنسيون قد اعترفوا فيما بعد أن القبيلة بريئة من التهمة الملفقة لها.

إن هذه المجزرة دفعت بالكثير من سكان متيجة إلى الانضمام للمقاومة وصعدت من المواجهة سيما بعد انظم الشيخ "محي الدين بن مبارك" آغا العرب إلى زعماء المقاومة، لقد اغتنم المقاومون بزعامة الحسين بن زعموم والشيخ "سيدي السعدي" فرصة خروج فرقة من الجيش الفرنسي إلى الجهة الشرقية من متيجة فانقضوا عليها بعد أن نصبوا لها كمينا، قتل على إثره 37 جنديا من اللفيف الأجنبي. فحاول الفرنسيون تطويق المقاومين برا وبحرا بقيادة الجنرال "بوشي"، إلا أن رجال المقاومة نجحوا في صد وإفشال هذا الإنزال.

5. - معركة سيدي عابد 2 أكتوبر 1832:

استمرت المقاومة بزعامة "الحاج سيدي السعدي" و"ابن زعموم" يحرضان على الجهاد، ففي نهاية سبتمبر 1832 عقدا تجمعا شعبيا لشحذ الهمم والتحريض على القتال قرب بوفريك في المكان المسمى سوق علي، وأما انتشار خبر هذا التجمع أرسل "الدوق روفيقو" في 02 أكتوبر 1832 حملة بقيادة الجنرال "فودواس" قوامها 1600 جنديا وضابطا إلى المقاومين إلى سيدي عابد، وحتى يتجنب المقاومون المواجهة المباشرة نصب الكمائن للقوات الفرنسية في المروج والمستنقعات، الأمر الذي أوقع على اثره 7 قتل جنود وجرح 14 منهم، في فرقتهم المتقدمة، مما دفع القوات الفرنسية للانسحاب.

6 – الحملة العسكرية على القليعة:

كان "الدوق روفيقو" يوم 02 أكتوبر 1832 في الوقت الذي أرسل في حملة الجنرال "فودواس" على سيدي عابد أرسل حملة بقيادة الجنرال "بروسيار" على مدينة القليعة، وهي الحملة التي نالت من

السكان العزل، وفرضت عليهم غرامة مالية وأسرت أفرادا من عائلة الشيخ "محي الدين بن مبارك" كرهائن. لتسليم نفسه. وهكذا استمر الوضع على حاله حتى تمكنت الإدارة الفرنسية من اختراق الصفوف داخل القبائل بعد أن عينت القياد الموالين لها وزرعت البغض بين الأشقاء، كما نجحت في إقامة مراكز عسكرية أمامية جديدة وكانت هذه العوامل مجتمعة وغيرها سببا في انحصار المقاومة في الجهة الشرقية من متيجة حيث المنطقة الجبلية، إلا أن الانتصارات التي حققها "الأمير عبد القادر" وعقده معاهدة "دي ميشال" واستيلائه على مدينة واستلائه على مدينة المدية، أعاد الأمل لأهل متيجة فسارع الشيخ "السعدي" لمقابلة "الأمير عبد القادرّ بالمدية فولاه خليفة له على متيجة والجهة الشرقية واستمر "الحج السعدي" يؤجج نار المقاومة رغم الفتور الذي ساد على عهد الجنرال "الكونت ديرلون" الذي فشل في احتلال البليدة واكتفى بإقامة الحصون الأمامية في الدويرة وبوفريك، وبعد أن اشتدت المقاومة في الغرب الجزائري على يد "الأمير عبد القادر" تراجعت الحملات الفرنسية على البليدة.

ففي بداية أكتوبر 1835 هاجمت قبائل بني صالح وحجوط وأوطان متيجة المركز العسكري ببوفاريك، مما جعل "كلوزيل" يثأر لقتلاه يوم 21 أكتوبر من سكان البليدة فقام بحرق دورها ونهب الأملاك ليعود بعدها إلى العاصمة. وفي 30 مارس 1836 حاول "كلوزيل" شن حملة على المدية، إلا أنه اصطدم مرة أخرى بمقاومة عنيفة من لدن قبائل في مواقع ثنية موازية ووادي شفة، حيث المناطق الجبلية الوعرة، فقبائل متيجة لم تحم سهول متيجة فحسب، بل حالت دون إحكام السيطرة الفرنسية على المدية. ففي شهر أفريل من عام 1836 وقعت سلسلة من الاشتباكات دامت ثلاثة أيام.

وإلى غاية هذه الفترة لم تتمكن فرنسا من فرض وجودها إلا في بعض النقاط كبوفريك والدويرة، ومركز أولاد يعيش. وفي عهد الجنرال "دامريمون" الذي خلف "كلوزيل" الذي فشل في حملته على قسنطينة سنة 1836، حاول احتلال البليدة نهائيا فجمع قواته في بوفريك وسار نحو البليدة في 29 أفريل 1837 فحاصرها بعد أن قسم جيشه إلى ثلاث فرق: الأولى؛ تحاصر المدينة من الجهة اليمنى. والثانية؛ من جهة اليسرى. والثالثة؛ تقتحم المدينة من الوس. ورغم المقاومة استطاع الجنرال "دامريمون" دخول المدينة، وأمر جنده بقطع كل الأشجار والبساتين وقد كلفته العملية خسائر بشرية، أجبرته على الانسحاب نحو بوفريك، وبتوقيع التافنة يوم 30 ماي 1837 قرر المارشال "فالي" فرض سيطرته نهائيا على البليدة.

7 – احتلال البليدة:

بعد أن تمّ احتلال قسنطينة، تفرغت القوات الفرنسية لمنطقة متيجة، بأن قاد المارشال "فالي" شخصيا حملة على قبائل بني صالج وبني مصرة وحجوط، المرابطة حول مدينة البليدة. وفي 3 ماي 1838 وصلت قواته إلى مشارف البليدة، ورغم محاولة مشارف البليدة، ورغم محاولة شيوخ المدية أمثال "محمد بن عميروش" وبعض علمائها مثل "سيدي محمد بن ابراهيم" إقناع المارشال بعدم دخول المدينة لكنه لم يبال بذلك وأصدر أوامره لإقامة مركزين عسكريين الأول في جونفيل (الذي تحول منذ 1843 إلى مستوطنة أوروبية)، والثاني في شمال المدينة على الطريق الرابط بينهما وبين بني

مراد (والذي تحول هو الآخر سنة 1843 إلى مستوطنة باسم مونتبانسييه)، ووضع المركزان تحت قيادة الجنرال "غالبوا"(Galbois). ودعما المركزان بنقاط عسكرية أخرى عند مدخل باب الرحبة، كدية ميمش حتى يتسنى للفرنسيين السيطرة على مجاري مياه سيدي الكبير.

وعلى اثر نقض معاهدة التافنة اشتدت المقاومة في متيجة بتدعيم خليفتي الأمير "عبد القادر" في المدية ومليانة، في هذه الأثناء تمت مهاجمة القرى الاستيطانية في بني موسى وخميس الخشنة وبني خليل وأخبروا المعمرين على تركها وتم القضاء على بعضهم في حوش خيدر وحوش الخزناجي وحوش خضرة وبابا علي وشبلي. وأمام هذا التصعيد، اضطر الفرنسيون إلى اخلاء معسكر ميمش يوم 25 نوفمبر ثم مركز سيدي خليفة في 28 نوفمبر، ثم العين الحمرة ووادي العلايق يوم 4 ديسمبر. بعدها تجمعت قوات العدو في البليدة وجوانفيل تحت قيادة الجنرال "جينييه" ثم انسحبوا من مركز أولاد يعيش تحت قيادة الكولونيل "شانقاني" باتجاه بوفريك. وبوصول الإمدادات بقيادة الجنرال "رويبه" يوم 14 ديسمبر إلى البليدة، حاول رجال المقاومة قطع الطريق أمام هذه القوات ما بين بوفاريك وبني مراد حيث وقع اشتباك قتل فيه 5 فرنسيين وجرح 20 آخرين، بينما تذكر المصادر الفرنسية سقوط 40 من رجال المقاومة المرابطين والمتحكمين في مجاري المياه حيث أضحى معسكر العدو بجوانفيل بدون ماء مدة تزيد عن الأسبوع، مما جعل القوات الفرنسية تخوض معارك بالقرب من وادي سيدي الكبير للتحكم في مجاري المياه.

وفي 16 ديسمبر دعّم المقاومون بمدفعين من المدية مما شجع المقاومة على مهاجمة الفرنسيين في البليدة حيث تم قتل 12 فرنسيان وفي الأسبوع الموالي جرت معركة أخرى خسر فيها الفرنسيون 8 قتلى و30 جريحا، كما تمّ قطع الاتصال بين البليدة ومعسكر جوانفيل. ولطلب الإمدادات، بعث الكولونيل "جونتي" العريف "بورديس" ليلا إلى بوفريك ولما علم الماريشال "فالي" بالوضع جمع قواته في الدويرة تحت قيادة "روستولون" يوم 29 ديسمبر 1839 وقضى ليلة في بوفريك ومنها انتقل مع فرقة إلى جوانفيل عبر وادي العلايق، وفي اليوم الموالي وصلت بقية القوات إلى جوانفيل حيث استطاعت رفع الحصار.

8 – معركة وادي العلايق ديسمبر 1839:

في الوقت الذي كان فيه قسم من رجال المقاومة (بني مصرة، بني صالح، وسكان المداشر الجبلية) يحاصرون المدية، هاجمت مجموعة أخرى ناحية خميس خشنة وبني موسى من الناحية الشرقية، الفرق الفرنسية المتواجدة في بوفريك ووادي العلايق، في حين وصلت قوات من قبائل حجوط من الناحية الغربية، وفي وادي العلايق دارت معركة أسفرت عن مصرع 30 فرنسي، في حين سقط 600 مقاوم. وفي مصادر أخرى قدرت الخسائر البشرية بـ 1800 قتيل. وقد قاد المارشال حملة في الجهة الغربية من متيجة احتل على اثرها مدينة شرشال في 15 مارس 1840ن في حين اتجهت حملات أخرى عبر موازية والعفرون، وادي جر، بومدفع انتهت باستيلاء القوات الفرنسية على مليانة. ويعترف الفرنسيون أنهم بين سنوات 1839 – 1842 لم يعرفوا طعم الراحة جراء الهجومات المتتالية.

إن المنطقة رغم قربها من العاصمة وأهميتها الاقتصادية والجيو ستراتيجية لم تتمكن فرنسا من السيطرة عليها إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر.